الشعراء/ الحرفيون الصغار

تُسمى الفترة من سقوط بغداد إلى بداية القرن العشرين الميلادي في الأدبيات الفكرية والسياسية عصور الانحطاط. ويغلب على ظني أن التعبير مقتبس من اصطلاح (العصور المظلمة) الذي يصف فترة ما قبل النهضة في أوروبا. وقد اكتشف الأوربيون الذين استخدموا الاصطلاح أنه يتجنى على الحقيقة عندما اكتشفوا جوانب عديدة مضيئة في الحقبة (المظلمة). وأحسبنا نحسن صنعاً لو أعدنا النظر في تسميتنا لأن الفترة التي نحن بصددها تحوي، إلى جانب انحطاط لا يجادل أحد في وجوده، جوانب إيجابية كثيرة لا ينبغي أن تسقط من الحساب.

صفة الانحطاط التي غلبت على هذه الفترة جعلت الباحثين في حلّ من التنقيب والتحليل، فظلت الفترة أشبه ما تكون بثقب أسود في تاريخنا (وهناك عدد من هذه الثقوب في هذا التاريخ). ولذلك أعترفُ أن التعميمات المخلّة التي تزخر بها مقالتي هذه تبلغ أوجها عند الحديث عن هذه الحقبة. هناك قرون عديدة مغمورة بالأتربة لا تزال في انتظار من يزيح عنها ما تراكم عليها ليصل إلى الكنوز المطمورة.

ما يعنينا، الآن هو أن السلطة التي هاجرت من قبل من بغداد، فعلاً، وبقيت في بغداد، رمزاً، انتقلت في هذه الحقبة،

رمزاً وحقيقة، إلى نخب عسكرية أجنبية لا تكاد تعثر بينهم على عنصر عربي واحد. لم يكن أمام الشعراء بلاط كبير، كبلاط الرشيد، أو بلاط صغير، كبلاط سيف الدولة يؤمّن لهم أسباب العيش. وإلى هذا الوضع المحزن أشار شاعر من شعراء الفترة:

أأمدح الترك أبغي الفضل عندهم
والشعر ما زال عند الترك متروكا؟!

لم يكن أمام الشاعر/ الأجير الذي لم يعد يجد أمامه رب عمل يستخدمه سوى أن يدخل السوق معتمداً على نفسه، يعرض منتجاته اليدوية على الزبائن دون أن يهتم، كثيراً أو قليلاً، بوضع الزبون الاجتماعي. ولّى زمان:

عطايا أمير المؤمنين ولم تكن
مجمعة.. من هؤلا.. وأولئكا

وجاء زمان.. «هؤلا وأولئكا!».

تحول الشاعر إلى حرفي صغير يجلس في دكانه الصغير محاطاً بما صنعه من منتجات يدوية صغيرة، شأنه شأن أي حرفي آخر في السوق. وتحول الشعر العربي إلى متجر يغص بالمعروضات البراقة الرخيصة أشبه ما يكون بالمتاجر التي تغوي السيّاح المفلسين في أيامنا هذه. كان شعر الشاعر/ الحرفي الصغير ينتج حسب الطلب: قصائد للمديح، وقصائد للرثاء، وقصائد للزواج (وربما قدمت قصيدة في الختان فوق البيعة!). ازدهر فن التأريخ الشعري، إن جاز

لنا أن نسميه فناً، وكان بوسع الشاعر/ الحرفي الصغير مقابل مبلغ تافه أن يدخل أي حادثةٍ تافهة في التاريخ شعراً.

ربما كان أعظم إنجاز ظاهر لهذه الحقبة هو اختراع فن الزخارف اللفظية. يشير باحث كرس كثيراً من الجهد والوقت لدراسة شعر الحقبة إلى بيت واحد:

لقلبي حـــبـــيبٌ، مليحٌ، ظريفٌ
بديعٌ، جـــمـــيلٌ، رشـــيقٌ لطيفُ

ويقول: «وبطريقة تبادل مفردات هذا البيت وتقديمها وتأخيرها يمكن صنع أربعين ألفاً وثلاث مئة وعشرين بيتاً» [١].

ويستعرض هذا الباحث الأشكال الشعرية الجديدة التي شهدتها الحقبة، والتي تشمل، على سبيل المثال لا الحصر، التشجير، وذوات القوافي، والقوافي المشتركة والملونة، والمخلعات، وما لا يستحيل بالانعكاس، والشعر الهندسي، وشعر طرده مدح والعكس هجاء [٢]. ويشير الباحث إلى قطعة شعرية واحدة من اثني عشر بيتاً «تُقرأ طولاً وعرضاً وطرداً وعكساً في أنحاء شتى، ويمكن أن تكون منها مئات القصائد» [٣]. من واجبنا أن نعجب أيما إعجاب بالمجهود الفكري الهائل الذي يختفي وراء هذه الزخارف المذهلة، ولكن من حقنا أن نتساءل هل لهذا المجهود الفكري الهائل أي علاقة بالشعر؟!

---

(١) انظر: بكري شيخ أمين، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، (بيروت: دار الآفاق الجديدة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠) ص ٢ من المقدمة.
(٢) المرجع السابق، ص ١٦١-٢٢٤ .
(٣) المرجع السابق، ص ١٩٩ .